دعاوى الحداثة حول الوحي والتأويل القرآني (عرض ونقد)

Claims of Modernity on Revelation and Qur'anic Exegesis - Discussion and Criticism-

راشد بن حميد بن محمد الجهوري

Rashid Humaid Mohammed ALjahwari

سلطنة عُمان / وزارة التربية /

ماجستير في أصول الدين والدعوة

الكلمات المفتاحية: دعاوى، الحداثة، الوحي، التأويل، الحداثيون، المستشرقون

الملخص

هذا البحث بعنوان « دعاوى الحداثة حول الوحي والتأويل القرآني – عرض ونقد– «، وقد اشتمل على مقدمة ومبحث تمهيدي ومبحثين رئيسين وخاتمة، احتوت المقدمة على عرض لفكرة البحث ومنهجه وخطته، وجاء المبحث التمهيدي ليعطي نبذة موجزة عن الوحي والتأويل والحداثة كتهيئة للدخول في المبحثين اللاحقين، وأما المبحث الأول فتناول الدعاوى المرتبطة بالوحي القرآني من خلال عرضها وتقديم النقد لها والرد عليها، وجاء المبحث الثاني ليناقش أبرز الدعاوى المرتبطة بالتأويل القرآني مع بيان الردود عليها، وأما الخاتمة فاشتملت على نتائج البحث وتوصياته.

وخلص البحث إلى بيان البيئة التي نشأت فيها هذه الدعاوى، والتي من أهم مظاهرها: الانهزام أمام ثقافة الغرب الغالبة، والتعامل مع القرآن الكريم كنص بشري، والتشكيك في الوحي، والاعتماد على العقل في تفسير كل شيء، وأبرز البحث كذلك خطورة هذه الدعاوى في أنها توجه رسائل غير مباشرة تهدف للطعن في القرآن الكريم، وهذه الرسائل قد لا ينتبه لها القارئ، كما أنها تستغل تطلع الشباب المسلم للثقافة والنهضة، وتحاول كذلك استغلال الأوساط الأكاديمية المؤثرة في الجامعات العربية، وأما الأساليب التي يتبعها الحداثيون في تمرير دعاويهم فهي متعددة، ومنها: الترويج للتنوير كغطاء تستتر تحته أفكار باطلة، واستخدام مصطلحات غامضة، وتعميمات مستهلكة، وشعارات في ظاهرها مستحسنة.

وقد أبرز البحث الدعاوى الحداثية في مجال الوحي، وتتلخص في عدة نقاط،منها: التشكيك في مسألة جمع القرآن الكريم وتدوينه، وحذف عبارات التعظيم المتداولة إسلامياً حول القرآن الكريم، ونقد علوم القرآن الكريم خصوصاً المرتبطة منها بمبحث نزول القرآن والنسخ والقراءات والإعجاز، والطعن في مصدرية القرآن، وفي مقابل هذه الدعاوى قدم البحث نقداً علمياً لهذه الدعاوى، ورد على كل واحدةٍ منها بطريقة منهجية.

وأمَّا الدعاوى الحداثية التي عرضها البحث في مجال التأويل القرآني فتتلخص في الترويج لتطبيق مناهج غربية يتم تأويل القرآن الكريم بها، وهي لا تتناسب معه كنص إلهي مقدس، والدعوى لإلغاء القواعد والضوابط الشرعية واللغوية في تأويله، وجعل السيادة للعقل في تأويل القرآن الكريم حتى في الأمور الغيبية، وقد نقد البحث هذه الدعاوى، وبيَّن سقوطها علمياً ومنهجياً، وأنها لم تأت بجديد بل هي ترديد لأقوال المستشرقين.

Keywords: Claims, Modernity, Revelation, Exegesis, Modernists, Orientalists

Abstract

This research is entitled “Claims of Modernity on Revelation and Qur’anic Exegesis -Discussion and Criticism-”. The research includes a preamble, a preparatory topic, two main topics and a conclusion. The preamble introduced the idea, approach and scheme of the research, while the preparatory topic highlighted a concise overview on the concepts of revelation, exegesis, and modernity as a preparation for discussion of the two subsequent topics. The first topic debates the claims related to the Qur’anic revelation by presenting, critiquing and responding to them. The second topic debates the most prominent cases related to Qur’anic exegesis with a clarification of the responses thereto. The conclusion included the results of the research and its recommendations.

The research concluded by illustrating the environment where these claims arose, the most important features of which are: defeat before the predominant culture of the West, handling the Glorious Qur’an as a man-made text, questioning revelation, and depending on reason to explain all the issues. The research also highlighted the crucialness of these claims in that they are drive indirect messages aiming to challenge the Glorious Qur’an. These messages may not be noticed by the reader, besides; they exploit the aspiration of Muslim youth for culture and renaissance, and attempt to make use of the influential academic groups in Arab universities. The approaches followed by modernists in communicating their claims are various, including: promotion for Enlightenment as a cloak under which deceptive ideas are concealed, the use of vague terms, exhausted generalizations, and slogans that are desirable from outside.

The research illustrated the modernist claims within the scope of revelation, and is summarized in several points, including: questioning the issue of collecting and writing down the Glorious Qur’an, deleting the Islam exaltation phrases Towards the Glorious Qur’an, and criticizing the sciences of the Glorious Qur’an, especially those related to the study of the Qur’an revelation, abrogation, Qur’anic readings and inimitability, as well as challenging the source of the Qur’an. To refute these claims, the research provided a scientific critique for these claims, and systematically responded to each one of them.

The modernist claims discussed by the research in the field of Qur’anic exegesis are summarized in promoting the application of Western approaches by which the Glorious Qur’an shall be interpreted, and it does not fit it as being a sacred divine text. Moreover, the claim to cancel the legal and linguistic rules and controls in its exegesis, and grant the sovereignty to the mind in the exegesis of the Glorious Qur’an even in the unseen matters. The research has criticized these claims, and discussed their errors scientifically and systematically, and that they did not produce any novel ideas, rather a repetition of the sayings of the Orientalists.

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن الكريم هدايةً للبشرية، والصلاة والسلام على خير البرية محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وبعد:

لقد بذل العلماء المخلصون جهوداً كبيرة في تدوين مباحث علوم القرآن الكريم، وتحقيق المسائل الواردة في هذه العلوم قديماً وحديثاً، واستفاد الخلف من السلف، وتنوعت أساليب التصنيف في هذا المجال؛ وذلك لَمَّا لمسه هؤلاء العلماء من الحاجة الماسة لهذه العلوم في التوصل إلى فهم القرآن الكريم بالشكل الصحيح من جهة، ولشرف كل علم يدور في فلك الكتاب العزيز، وفي مقابل ذلك ظهرت دعاوى من بعض المفكرين العرب تدَّعي مقصد التنوير والتطوير؛ وهي في حقيقتها معاول تبتغي الهدم والتمييع، حتى أنَّ أحدهم وصف علوم القرآن بالوسائط المتحجرة التي تحول بين النص القرآني وفهم العقول لمعانيه، وآخر يصفها بأنها زادت من الإشكال والتعقيد، وفي خضم هذه الدعاوى يأتي هذا البحث ليكشف عن حقيقتها، ويبرز أهم وسائلها، ويحذر من خطورتها بالمنهج العلمي.

إنَّ الحديث عن الدعاوى الحداثية التي أثارها بعض المفكرين العرب، وما زال يثيرها ويرددها أتباعهم حديثٌ واسع متشعب، ولكن سيكون التركيز على الدعاوى الموجهة إلى قضيَّتي: الوحي والتأويل، فالأولى ترتبط بقداسة القرآن الكريم ومصدره الإلهي، والثانية ترتبط بفهم هذا الكتاب العزيز، وكلا القضيتين أخذتا مساحة واسعة من جهود علماء الأمة، وفي المقابل كانت هجمات الحداثيين عليهما شرسة وبأشكال وأساليب متنوعة، وبين هذه الدعاوى وتلك الجهود تبرز المواجهة، والتي يحاول الباحث تفنيد عناصرها من خلال المباحث الآتية:

المبحث التمهيدي: نبذة موجزة عن الوحي والتأويل والحداثة.

المبحث الأول: قضية الوحي ودعاوى الحداثة

المبحث الثاني: قضايا المعنى والتأويل ودعاوى الحداثة

الخاتمة: خلاصة البحث وأبرز نتائجه.

المبحث التمهيدي: نبذة موجزة عن الوحي والتأويل والحداثة

إنَّ التعريف بهذه المصطلحات في مستهل هذا البحث يُعد من الأهمية بمكان؛ وذلك لأنَّ الحديث سيتكرر عنها في ثنايا البحث، وكذلك فالتصور المبدئي المختصر عنها سوف يساعد في فهم النقاط التفصيلية اللاحقة، لاسيّما أنَّ الموضوع عميق ودقيق سواء على مستوى العرض أو النقد.

أولاً: نبذة موجزة عن الوحي:

الوحي هو رسالة الله للأنبياء والرسل ليبلغوها للناس، وقد عرفه الزرقاني بقوله: (أن يُعْلِمَ الله تعالى من اصطفاه من عباده كلَّ ما أراد اطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سريَّة خفية غير

معتادة للبشر)[1]، وبهذا فهو أصدق مصادر المعرفة، وفيه من الأمور الإيمانية والحقائق الغيبية ما يعجز عن الوصول إليه العقل، وكان ختام الوحي نزوله على سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، قال تعالى: «نزل به الروح الأمين*على قلبك لتكون من المنذرين* بلسانٍ عربي مبين» [الشعراء: ١٩٢-١٩٤]، وأراد الله تعالى للقرآن الكريم أن يكون معجزاً محفوظاً من التحريف والتبديل، قال تعالى: «إنَّا نحن نزلنا الذكر وإنَّا له حافظون» [الحجر: ٩]، ولذلك جاءت طبيعته وخصائصه مختلفة عن الكتب السماوية السابقة.

ثانياً: نبذة موجزة عن التأويل:

اختلف العلماء في تحديد معنى التأويل القرآني، ولا يتسع المقام لذكر هذه التعريفات، ولكن اختار من بينها التعريف الآتي: (بيان ما يرجع إليه معنى القرآن بمقتضى القواعد والنظر الدقيق)[2]؛ لأنه يجمع بين التعاريف اللغوية، ومعنى التأويل في القرآن، مع التذكير في سياق دراستنا هذه أنه لا مانع من استخدام التأويل بمعنى التفسير، إذ التعريف يحتمله ضمناً.

ثالثاً: نبذة موجزة عن الحداثة

مفهوم الحداثة من المفاهيم غير المنضبطة التي يصعب الإمساك بأطرافها، كما أنه تم الخلط بينه وبين بعض المفاهيم القريبة منه، ويزداد الأمر تعقيدًا عندما يتم ربط الحداثة بالنصّ القرآني كنصٍّ مقدَّسٍ، والأفكار الأبرز فيها: قطع الصلة بالتراث التفسيري، وتُغلِّب العقل على ما سواه من الأصول للنظر في القرآن الكريم، كما أنها تستبعد مفهوم القداسة في التعامل مع نصوص الوحي[3].

❊ ❊ ❊

المبحث الأول
قضية الوحي ودعاوى الحداثة

الوحي من المسلمات التي يؤمن بها المؤمن صادق الإيمان، وعليه قامت الرسالات والنبوات، وكان بنزوله على رسولنا الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) ختامها جميعاً، وأراد الله تعالى بحكمته أن يكون القرآن الكريم معجزاً محفوظاً من التحريف والتبديل، وهي سمات لم تتوفر في الكتب السماوية التي سبقته، ومع وضوح هذه الحقيقة إلا أنَّ أعداء الأمة قديماً وحديثاً لم تسكن نفوسهم حتى أثاروا الشبهات حولها؛ وكان للمستشرقين دورٌ بارز في العصر الحديث في هذا المجال من خلال فلسفات ومناهج وأساليب متنوعة، وسار على نهجهم أتباع فكرهم الفاسد من الحداثيين العرب، فما هي حقيقة هذا الفكر في حديثه عن الوحي؟ وما أوجه بطلانه؟

المحور الأول: البيئة التي نشأت فيها دعاوى الحداثة

إنَّ تتبع الحركة الحداثية عند المفكرين العرب يظهر

(١) عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان، ١/ ص٥٦.
(٢) مرهف عبد الجبار، مقال بعنوان: تعريف التأويل.
(٣) فاطمة الناصري، القراءة الحداثية للنصّ القرآني: دراسة نظرية حول المفهوم والنشأة والسمات والأهداف، ص١.

الدور الرئيس للدراسات الاستشراقية في تبلور الكثير من أفكارها، ويبرز التأثير المباشر وغير المباشر في الكتابات الحداثية العربية، وهو أمرٌ اعترف به بعضهم صراحةً، ومنهم محمد أركون الذي قال: (تقدُّم الدراسات القرآنية قد تم بفضل التبحر الأكاديمي الاستشراقي منذ القرن التاسع عشر)، وبعضهم أظهر التمجيد الكبير للدراسات الاستشراقية، ومنهم محمد عابد الجابري الذي قال: (إني لا أنكر أني استفدت كثيراً من كتابات المستشرقين)[1]؛ طبعاً هذه الاستفادة تتلخص في الطعن في الدين ومعارضة مسلماته، ويهمنا في هذا السياق التركيز على البيئة التي نشأت فيها الدراسات الحداثية المتصلة بموضوع الوحي، والتي أفرزت دعاوى حول مبحث الوحي، بل ردد بعضهم أقوال المستشرقين بصورة أقبح، وبأسلوب ينم عن مرامي خبيثة في نفوس أصحابها، ومن أهم مظاهر هذه البيئة:

- الانهزام أمام ثقافة الغرب الغالبة، والانبهار بها دون تمحيص حيثيات تعارضها مع ثوابت الدين الإسلامي، والنتيجة تقليد أعمى وتبني لأفكار مستوردة تعارض مسلمات الدين الإسلامي.
- معاملة النص القرآني كأي نص أدبي بشري قابل للنقد، وتطبيق المناهج النقدية الحديثة عليه، والنتيجة عدم اعتبار أي خصوصية لربانية القرآن الكريم أو إعجازه أو حفظ الله له.
- التشكيك في الوحي وممارسة القطيعة مع التراث الإسلامي، وهي محاكاة وتقليد للحداثة الغربية.
- الاعتماد على العقل في تفسير كل شيء في الكون؛ لأن العقلانية لازم من لوازم الحداثة حتى وإن تعارضت مع حقائق الدين الإسلامي[2].

نستخلص من السابق أنَّ البيئة التي نشأت فيها دعاوى الحداثة حول مبحث الوحي، هي بيئة انهزام وانبهار وتمجيد اتجاه دراسات المستشرقين في هذا المجال، وكذلك هي بيئة تشكيك ومقاطعة للوحي والتراث، ويضاف إلى ذلك أنها بيئة عقلانية مفرطة في استخدام العقل دون اعتبار للوحي الإلهي، ولذلك فهي بيئة فاسدة من مختلف الجوانب، ولذلك فإنتاجها جاء فاسداً بطبيعة الحال.

المحور الثاني: خطورة دعاوى الحداثة في قضية الوحي

تتمثل خطورة دعاوى الحداثة في عدة مسارات، وينتشر تأثيرها محاولاً اختراق عقول الشباب المسلم فكرياً من جهة، وعلى تماسك المجتمع المسلم من جهة أخرى، وقد اشتدت هذه المخاطر في عصرنا بسبب عدة عوامل، من أبرزها: ثقافة السلطة الغالبة المتمثلة في الدعم الاستعماري لرواد الحداثة من العرب، وتنبني الكثير من المشاريع العلمية الداعمة للحداثة خصوصاً المرتبطة منها بجانب الوحي كمراكز البحوث وإقامة

(١) يحيى المسقري، الوحي القرآني من منظور القراءة الحداثية، ص٢٨-٢٩.

(٢) النقاط السابقة مستخلصة من المصدر السابق، ص١٣-١٤-٢٣.

الندوات والمؤتمرات ونشر الكتب وتوجيه مسار الدراسات الأكاديمية، وضحالة التكوين العلمي الراسخ لطلاب العلم في بعض الجامعات الإسلامية، وفيما يأتي أبرز هذه المخاطر:

- يستحوذ على اهتمام المستشرقين دراسة تاريخ العلم نفسه، وعدم المشاركة الموضوعية المباشرة في مسائل العلوم الإسلامية، فيكتبون مثلاً في: تأريخ العقيدة، ولا يكتبون في مسائل العقيدة المباشرة، فيتأثر القارئ بالأولى أكثر من الثانية، والأمر ينطبق على دراستهم للوحي، وتتمثل الخطورة في ذلك أنَّ القارئ عادةً أقل احتراساً وممانعة تجاه الرسائل غير المباشرة[1].

- تطلع الشباب الإسلامي للثقافة والنهضة في مقابل وجود مشاكل يعاني منها واقعهم جعل تأثير دعاوى الحداثة قوياً على فكرهم، بما في ذلك الدعاوى المرتبطة منها بقضايا الوحي[2]، والتي سيأتي تفصيلها لاحقاً.

- وجود أكاديميين يتبنون الفكر الحداثي في قضايا الوحي فبعضهم يشرف على البحوث الحداثية، بل يوجه مسارها لخدمة المشروع الحداثي، وتأثيرهم بطبيعة مواقعهم الأكاديمية في طلبة الدراسات العليا كبيراً، فتتشكل بذلك شبكة من الأتباع والتلاميذ الذين يجدون الرعاية المادية والمعنوية، ومن أمثال هؤلاء عبد المجيد الشرفي في تونس[3].

- محاولة إفراغ القرآن الكريم من مصدريته الربانية ونزع القداسة عنه، ومحاولة جعله بشرياً تمهيداً لوصفه بالقصور وتسهيلاً لنقده لاحقاً، ويلحق بهذا موضوع ما يسمى بأنسنة القرآن، وكذلك إزالة الغيبية عنه[4].

- اتخاذ مبحث الوحي أداةً للفتنة، وترويجاً للغواية والإباحة بجعله ستاراً لمأربهم، ومقصدهم في ذلك هدم الدين والإضلال، والعقلية التي ينادون بها في مقابل معارضة الوحي بتغليب المادية والإلحاد والإباحة كما يقول الشيخ الزرقاني[5].

- يشير الباحث في الفكر الإسلامي (ونيس المبروك) إلى خطورة القراءة الحداثية للقرآن من حيث أنها تنطلق من شعارات إسلامية وإنسانية صحيحة كالحرية والتعدد والنسبية ورعاية الواقع والمرونة، لكنها تنتهي إلى نتائج محاولة هدم الثابت[6]، وهذا في حد ذاته كفيلٌ بالتأثير المباشر وغير المباشر في نشر هذه الأفكار المسمومة.

- إنكار جهود العلماء السابقين الذين اعتنوا بقضايا الوحي، ومحاولة صناعة القطيعة بين إنتاجهم التأليفي في هذا الجانب وبين الأجيال المعاصرة، وفي

(١) ينظر: إبراهيم السكران، التأويل الحداثي للتراث، ص٣٨.
(٢) المصدر السابق، ص٧٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٨٠-٨١.
(٤) يحيى مصلح المسقري، الوحي القرآني في منظور القراءة الحداثية، ص٤٩.
(٥) عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرقان، ج١/ ٥٦.
(٦) ونيس المبروك، مقال: باحث في الفكر الإسلامي يحذّر من القراءات الحداثية للقرآن، موقع: عربي٢١.

المقابل التمجيد العظيم للبحوث الاستشراقية الطاعنة في الوحي، والمثيرة للشكوك حوله.

وهناك مخاطر أخرى كثيرة يضيق المقام عن ذكرها، وننتقل الآن إلى الأساليب والمظاهر.

المحور الثالث: أساليب ومظاهر تمرير دعاوى الحداثة

اتخذ المستشرقون ومن تبع نهجهم من الحداثيين العرب أساليب متنوعة لتمرير دعاويهم الباطلة المرتبطة بموضوع الوحي، وحاولوا دس أفكارهم ودعاويهم وشبههم في ثنايا بحوثهم بمظاهر متعددة، ويحاول الباحث في هذا السياق أنْ يستخلص بعض هذه الأساليب والمظاهر، ومنها:

- الترويج للتنوير، وطرحه كضرورة في التعامل مع جميع العلوم الشرعية الإسلامية، بما في ذلك علوم القرآن الكريم ومبحث الوحي، وهي منهجية تستخدم كغطاء تستتر تحته أفكار باطلة وطعون ضد القرآن الكريم.

- استخدام ألفاظ غامضة لتمرير شبه ودعاوى باطلة لا يفهمها المتلقي بصورة واضحة، والهدف صعوبة كشف أوجه البطلان فيها.

- العبث بالمصطلحات القرآنية وتحريفها وإخراجها عن حقائقها الشرعية واللغوية والعرفية[1]، والألفاظ البديلة المستخدمة تمهيداً لتمرير الدعاوى، وتقبل المجتمع لها.

- استخدام تعميمات مستهلكة مألوفة في لغة المستشرقين[2]، وهذه التعميمات تهدف إلى استنساخ دعاوى المستشرقين ودسها في الثقافة الإسلامية بصورة براقة.

- الشعارات المطروحة في الدراسات الحداثية تتخذ شعارات عامة مثل: تحرير العقل، ونقد الموروث، والحرية[3]، وهي شعارات في ظاهرها مستحسنة لكنَّ هدفها ركوب موجة التشكيك المعاصرة.

المحور الرابع: أبرز الدعاوى الحداثية الموجهة إلى مبحث الوحي القرآني وما يرتبط به:

الوحي هو المصدر الإلهي لتبليغ رسالات الله تعالى، وكان ختام نزوله على سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وقد حاول المستشرقون ومن بعدهم الحداثيون العرب إثارة الدعاوى والشكوك في هذا المصدر من خلال جملة من الأفكار والاستنتاجات الباطلة، ومن هذه الدعاوى:

- تطبيق المنهجية التاريخية في بيان العلاقة القائمة بين الوحي والتاريخ بهدف زحزحة المفهوم الحقيقي للوحي، وتجاوزه إلى مفاهيم حداثية تنزع عنه القدسية[4]، ومن أوائل الذين تكلموا في تاريخ النص القرآني وحاولوا التشكيك في مسألة جمع القرآن الكريم وتدوينه المستشرق نولدكه، وشاركه المستشرق بلاشير، وسار على ركبهم الحداثيون العرب في تبني

(١) يحيى مصلح المسقري، الوحي القرآني في منظور القراءة الحداثية، ص٣.

(٢) إبراهيم السكران، التأويل الحداثي للتراث، ص١٣٠.

(٣) أحمد يوسف السيد، سابغات، ص١٨.

(٤) صليحة بن عاشور، الخطاب القرآني والمناهج الحديثة في تحليله، ص٢٢٩.

هذه الأفكار التي تشكك في سلامة القرآن الكريم من التحريف، حيث أثار نولدكه مجموعة من النقاط في هذا السياق، منها: التشكيك في سلامة التحول القرآني من نص شفهي إلى نص مكتوب، وذكر في هذا السياق أنَّ الذاكرة يعتريها السهو والنسيان، وأنَّ الكتابة في زمن كتابة الوحي منقوصة لم تكتمل معالمها، وشكك كذلك في روايات جمع القرآن وتدوينه ووصفها بأن بينها اختلاف ومتناقضة، بل وصل إلى أبعد من ذلك حين قال بأنَّ الذاكرة لا تسجل ما تحفظ تسجيلاً أميناً[1]؛ متهمًا بذلك حفظة الوحي بالتعديل والتبديل في نصوص القرآن عند تبليغهم إياها، وهو كلامٌ يتجاوز أبعد الحدود في الحديث عن القرآن الكريم ككتاب سماوي محفوظ من التبديل والتحريف، وكنص متواتر قطعي الثبوت، ولا تستغرب هذه الأفكار من مستشرق ينطلق من أيدولوجيات حاقدة على الإسلام وكتابه المعجز الخالد، ولكن العجب ممن يتبناها وهو ينتسب إلى الإسلام.

- انتهجت القراءة الحداثية في التعامل مع القرآن عمليات خاصة، كحذف عبارات التعظيم المتداولة إسلامياً واستبدال المصطلحات المقررة تاريخياً بمصطلحات جديدة كاستبدال الآية بالعبارة، والتعامل مع القرآن الكريم كأي نص بشري سواءً على مستوى الاستدلال أو مستوى تحليل الخطاب، فمحمد أركون يصرح أنه يتعامل مع الكتب المقدسة بما فيها القرآن الكريم كنص لغوي سيميائي بعيداً عن أي اعتبار عقائدي، ويؤكد نصر حامد أبو زيد هذا المعنى عندما ينتقد القول بربانية النصوص لأنَّ ذلك حسب استنتاجه يستلزم أن يكون البشر عاجزين بمناهجهم عن فهم هذه النصوص لقصور طاقاتهم[2]، وهذه الأقوال فيها من التمويه الشيء الكثير الذي يتجاوز الخطوط الحمراء في التعامل مع القرآن الكريم كنص مقدس، ودس للسم في قوالب من التنظير المخادع.

- نقد علوم القرآن الكريم ووصفها بأنها وسائل معرفية متحجرة تحول دون الفهم الصحيح للقرآن الكريم، مع تمجيد كبير للمناهج الحداثية، واتخاذها وسائل لنقد القرآن الكريم[3]، وفي هذا الأمر مغالطات لا تخفى، وأفكار يبطلها النقل الصحيح والعقل الصريح، وسيأتي الرد عليها لاحقاً بإذن الله، وهذه النقطة ترتبط بمبحث الوحي من ناحية مبحث نزول القرآن الكريم، وطرق حفظه، وظروف هذا النزول، ومبحث النسخ في القرآن الكريم؛ حيث إنها عناوين ترتبط بمؤلفات علوم القرآن، وسيأتي تفصيل آخر في النقطة الآتية.

- انتقاد علم القراءات، وعلم فواتح السور، وعلم الإعجاز؛ ووصفها بأنها تسببت في إثارة

(١) ينظر: باسم المكّي، تاريخيّة النصّ القرآني وإشكالية جمع المصحف في الدراسات القرآنية الاستشراقية، ص٢٧-٣٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٣٨.

(٣) يحيى مصلح المسقري، الوحي القرآني في منظور القراءة الحداثية، ص٦٠-٦١.

إشكاليات عقديّة وفقهية، والأهم عند الحداثيين أنها تتعارض مع العلوم الإنسانية الحديثة التي بهرت عقولهم، ورأوا فيها المعيار الذي تحاكم عليه علوم القرآن الكريم، وعلى أساسه تنتقد[1]، ونسي هؤلاء أنَّ علوم القرآن الكريم تقوم في غالبها على الروايات، وأنَّ أي مراجعة لابد أن تنطلق من علم الحديث الذي يميز بين الروايات، وأن يقوم بها محققون راسخون في هذا العلم، لا أنْ تنطلق من مناهج مستوردة لا همَّ لها سوى التشكيك والطعن، وربما تصلح لنصوص بشرية لا لكلام إلهي مقدس، ومصطلح (المقاربات) يكثر ذكره في مثل هذه الدعاوى كتغطية على افتراءتهم.

- أثار بعض الأكاديميين بعض الدعاوى الحداثية حول موضوع النسخ في القرآن الكريم، ووصلوا إلى استنتاجات تتعارض مع قدسية القرآن الكريم، وجعلوا هذا الموضوع مدخلاً لإثارة إشكاليات وتساؤلات باطلة تتلون بصبغة انتقاد جهود العلماء السابقين في هذا الموضوع، والترويج لأفكار خطيرة منها: أنَّ اختلاف المصنّفين في هذا العلم يجعله علم غير موثوق به هدفه إزالة التناقض بين آيات القرآن فقط، ومنها كذلك أنَّ مقالة الناسخ والمنسوخ تؤكد أنَّ الوحي ظاهرة متحركة غير ثابتة في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصحابته، ويأتي الاستنتاج الآخر بعد هذه الفكرة: أنَّ النصّ القرآني قابل للمراجعة؛ بل للتعديل مسايرةً لأحوال الناس وتطور تجربتهم الدينية[2]، ويستند الأكاديمي صاحب هذه الاستنتاجات الحداثية الساقطة على أحد مقولات أستاذه محمد أركون.

وباحث آخر يكتب عن (النسخ في رسالة الشافعي) ويأتي فيه باستنتاجات هي الأخرى دعاوى حداثية باطلة في حق القرآن كنص مقدس، وهي كسابقتها تستند على أفكار أساتذتهم الحداثيين: محمد أركون ونصر حامد أبو زيد، ومن هذه الاستنتاجات: انتقاد الإمام الشافعي لأنه اتخذ النّسخ حلاً لدفع التناقض عن آيات القرآن، ولأنه لم يتعامل مع اختلاف الآيات من منطلق اختلاف الخطابات فيها بين التحاور والجدال والرفض وغيرها كما يقول، وهو الآخر يستشهد بكلام أركون ونصر حامد، ويدندن على فكرة الفرق بين الخطاب والنص، وعلى فكرة تعدّد الخطاب، وأدخل قضايا تفصيلية جاء فيها بكلام عجيب ليدلل على أفكاره الحداثية وفلسفته الضعيفة حول الموضوع، ومنها: قضية الرجم والوصية لوارث واتجاه القبلة وغيرها، وحاول الباحث الحداثي التقليل من السنة النبوية كمصدر تشريعي يمكن أن يكون ناسخا لبعض أحكام القرآن[3]، وعند التأمل نجد جميع هذه الدعاوى تفتقر إلى المنهجية العلمية؛ فضلاً عن أنها مدخل للتشكيك في جهود كثير من العلماء في مجال علوم القرآن وأصول الفقه، والنتيجة الأخطر:

(١) شكري بوشعّالة، علوم القرآن على محكّ النقد والمراجعة، ٤٣٦-٤٣٧.

(٢) حّمادي المسعودي، ظاهرة النسخ في القرآن، ص١٧٤-١٧٨.

(٣) عبد الباسط قمّودي، النسخ في رسالة الشافعي، ص١٨٨-ص٢٠٣.

الترويج لأفكار حداثية تتعلق بالنص القرآني كوحي مقدس.

- الترويج لمنهج النقد بشكل مفرط في التعامل مع علوم القرآن لا سيما المتصل منها بموضوع الوحي، ولا يلبث أن يتحول هذا الترويج من منهج إلى هدف مقصود لذات النقد، حيث يصف بسام الجمل هذه المنهجية بروح نقديّة عالية، ويقول بشكل صريح: (تأسّيا بتقليد راسخ في البحث اشتهرت به المدرسة الاستشراقيّة الألمانية في الدراسات القرآنية)، ويدعو الدارس المعاصر إلى أن يتناول علوم القرآن بأسئلة ومراجعات واستنتاجات ونتائج[1] بناءً على مقياس العلوم الاستشراقية المعاصرة، وكأنها هي المعيار الذي يحتكم إليه في النقد، ويمكن التعبير عن هذه الدعوة بـــ: نقد كلام الله المقدس بمناهج بشرية قاصرة.

- التشكيك في إجراءات جمع القرآن الكريم زمن أبي بكر (رضي الله عنه)، وأنّ دوافعها سياسية كما جاء في كتاب المستشرق نولدكة وتلاميذه، وكذلك إثارة الشبهات حول مسائل علوم القرآن التفصيلية، حيث يتم إقحام الغايات السياسية وراءها، كما صرح بذلك المستشرق جولدزيهر، وحتى قراء القرآن يتم إلباسهم ثوب السياسية كما قال المستشرق بروكلمان، وتبعهم على ذلك بعض الحداثيين العرب مثل محمد عابد الجابري وعبد المجيد الشرفي وفهمي جدعان وغيرهم في وصف الجهود التي قام بها الصحابة ومن بعدهم في خدمة العلوم الشرعية بما فيها علوم القرآن بأنها ذات دوافع سياسية، وإقحام الدوافع السياسية في العقل الحداثي العربي ليست أمر عرضي بل هي منهج لديهم حيث يقول الجابري: (أية ثقافة هي في جوهرها عملية سياسية)[2]، وسيأتي تفصيل الرد عليها لاحقاً بإذن الله.

- الطعن في مصدر القرآن الكريم أنه من عند الله تعالى، حيث إنَّ هذا الطعن والتشكيك بدأ به المستشرقون، وتبعهم في ذلك الحداثيون العرب، وملخص هذه الدعوى يتضح في أربع نقاط هي كالآتي:

أ- إنَّ الشعور الداخلي أو اللاوعي هو مصدر الوحي: وهذه الدعوى أثارها الحداثي عبدالمجيد الشرفي وسبقه في ذلك المستشرق نتجمري وات والمستشرق نولدكه[3].

ب- إنَّ مصدر الوحي الخيال الخصب أو الإلهام الداخلي: من الحداثيين العرب الذين جاءوا بهذه الدعوى: حسن حنفي ونصر حامد أبو زيد، ومنبت الفكرة الفلاسفة والمستشرقون[4].

ج- إن الجنون أو الصرع أو الهستيريا مصدر الوحي: والهدف من هذه الدعوى وصف الوحي بحالة مرضية تصيب الإنسان، ومصدر هذه الدعوى

(١) بسام الجمل، مقدمة مشروع بحثي جماعي بعنوان: علوم القرآن في الإبستمية المعاصرة، ص١٥.

(٢) إبراهيم السكران، التأويل الحداثي للتراث، ص١٥٦-ص١٦٤.

(٣) يحيى مصلح المسقري، الوحي القرآني في منظور القراءة الحداثية، ص٩٨، ص١٠٢.

(٤) المصدر نفسه، ص١٠٣.

بعض الفلاسفة والمسترقين مثل نولدكه[1].

د- إنَّ الأديان السابقة وتعامل النَّبي مع الواقع هو مصدر للوحي: وهذه الدعوى تبناها عددٌ من أصحاب القراءة الحداثية، منهم: نصر حامد أبو زيد الذي تحدث عن البنية الثقافية والسياق الثقافي المنتج للنص، وعبدالمجيد الشرفي الذي وصف القرآن الكريم بأنه يحتوي على عناصر من ثقافة القرن السابع الميلادي، وكذلك محمد أركون تحدث عن الأثر الكتابي على القرآن الكريم، وأما محمد عابد الجابري فقد تحدث عن أثر الحياة الاجتماعية في تشكل القرآن، وجميع هذه الأفكار والدعاوى الباطلة سبقهم بها المستشرقون[2].

الخلاصة: نلاحظ مما سبق أنَّ الدعاوى الحداثية المرتبطة بموضوع الوحي تنوعت وتعددت؛ ولكنَّ هدفها واحد هو زحزحة مكانة الوحي في قلوب المؤمنين ومحاولة نزع القدسية عنه ومحاولة وصفه بأن مصدره بشري، والنتيجة أنه قابل للنقد، وهذه الدعاوى تتداخل مع بعضها البعض في بعض الأحيان، وباختصار هي: مناقشة تاريخ النص والتشكيك في طريقة جمعه وتدوينه، والتعامل مع القرآن كنص لغوي مجرد من القدسية، ونقد علوم القرآن الكريم بشكل مفرط خصوصاً مباحث: النزول والقراءات والنسخ، والتشكيك في مصدرية القرآن الكريم ووصفه بحالات بشرية، وسيأتي في المحور الآتي نقد هذه الدعاوى.

المحور الخامس: نقد دعاوى الحداثة في مجال الوحي

تبيّن من خلال المحاور السابقة أوجه بطلان القراءة الحداثية في مجال الوحي، وفي هذا المحور يتعرض الباحث لنقد دعاوى الحداثة في هذا المجال بشكل تفصيلي، وبيان الردود العلمية المنهجية على هذه الدعاوى، ونقاط النقد والردود كالآتي:

١- الرد على دعاوى الشك والطعن في مصدرية الوحي: لقد بذل الدكتور محمد عبد الله دراز جهداً كبيراً في الرد على هذه الدعاوى من خلال كتابه (النبأ العظيم)، وملخص ما ذكره في ذلك اختصره في النقاط الآتية:

- لا يمكن أبداً أن يكون كل ما في القرآن مما يستنبطه العقل والتفكير، أو مما يدركه الوجدان والشعور، ففي القرآن الكريم معاني نقلية لا مجال فيها للذكاء والاستنباط[3].

- قصص السابقين والأنباء التاريخية التي ذكرها القرآن الكريم بشكل دقيق لا جدال في أنَّ سبيلها النقل لا العقل، وأنها تجيْ من خارج النفس لا من داخلها.

- الحقائق الدينية الغيبية لا سبيل للعقل إليها فقد جاء في القرآن الكريم وصف بدء الخلق ونهايته، والجنة ونعيمها، وألوان العذاب، وكذلك جاء بأنباء مستقبلية لا سبيل فيها لليقين إلا بالوحي الصادق،

(١) المصدر السابق، ص ١٠٦-١٠٨.
(٢) المصدر السابق، ص١١٣-١١٤.
(٣) ينظر: محمد عبدالله دراز، النبأ العظيم، ص٣٦-ص٦٦.

ولا يمكن أن تكون تلك الأنباء كلها وليدة العقل وثمرة الذكاء.

- عجز كفار قريش أن يعقدوا صلة علمية بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين أهل العلم في عصره، وملحدو اليوم ما زالوا يبحثون عن هذه الصلة في قمامات التاريخ، وتبعهم في ذلك أصحاب القراءة الحداثية عندما تحدثوا عن تأثير الواقع والكتب السابقة في تشكل القرآن الكريم، وهم أعجز من أن يأتوا بدليل على هذه الدعاوى؛ حيث قد عجز أعلم الناس بأسفاره ورحلاته -كفار قريش- أن يأتوا بذلك.

- ظروف الوحي وملابسات نزوله ترد على نظرية الوحي النفسي؛ فأوصاف الوحي تدلل أنَّه حال غير اختيارية، وهو عارض غير عادي، وهو قوة خارجية عالمة أعلى من قوته، وهي قوة خيِّرة معصومة؛ فهذه الأوصاف لا يمكن أن تكون إلا قوة ملك كريم نزل بالوحي الإلهي على النبي الأمين صلى الله عليه وسلم[1].

٢- الرد على دعاوى الحداثة المرتبطة بنقد علوم القرآن: وسيكون الرد في ثلاث نقاط:

- الرد على الدعاوى في مبحث جمع القرآن الكريم: أثار المستشرقون شبهة تحريف القرآن عند جمعه في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وتبعهم في ذلك تلاميذهم من أصحاب القراءة الحداثية، وتحدثوا عن الانتقال من الحفظ الشفاهي إلى الحفظ الكتابي يخل بالمحفوظ، ويجعله مختلفاً عن السابق، وجميع هذه الشبه الباطلة لا تقوم على دليل، وتتصادم مع حقائق ثابتة؛ فالقرآن الكريم كان محفوظاً بشكل كامل بالطريقتين: في الصدور وفي السطور، ولم ينتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى إلا وجميع القرآن مكتوب في أدوات متفرقة، والعمل الذي قام به ثابت بن زيد رضي الله عنه بتكليف من الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه كان في غاية الدقة والإتقان، وكان هدفه جمع القرآن الكريم مكتوباً في مكانٍ واحد، وكان من منهجه أن يطابق بين المحفوظ والمكتوب، وقد بينت الباحثة بدرية بنت راشد المهندي عدداً من النقاط ترد بها على التشكيك في تدوين القرآن الكريم وجمعه، اختصرها في الآتي[2]: الرقابة النبوية على التدوين القرآني من خلال اتخاذ كتاب للوحي بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم، ومراجعته صلى الله عليه وسلم للمكتوب بعد املائه، ومنعه تدوين غير القرآن الكريم تحقيقاً لضبطه، وكذلك تواتر النقل الصحيح والخبر الصريح بما يقطع بحصول التدوين كاملاً زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وما قام به زيد بن ثابت رضي الله عنه عند جمعه للقرآن من خلال إقامة شاهدين على سماع كل آية كان يكتبها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو

(١) الردود السابقة مستخلصة من المصدر السابق، ص٣٦-ص٦٦.

(٢) بدرية المهندي، دعوى التحريف في كتابة القرآن الكريم عند الحداثيين -دراسة تحليلية نقدية-، أطروحة ماجستير: ص٩٠-٩٤وص١١٣-١٢٠.

أملاها عليه، وتتبع محفوظات القّراء المدونة وعدم الاكتفاء بالسماع، وكل هذا الضبط والتحري والدقة والإتقان في التدوين والجمع ينسف دعاوى الحداثيين والمستشرقين البائسة.

- الرد على الدعاوى في مجال القراءات القرآنية: تواتر الروايات في القراءات وشهرتها يقطع الطريق أمام الحداثيين لركوب الموجة التي ركبها قبلهم المستشرقون في أنَّ تعدد القراءات أحدث إشكاليات فأثاروا حولها الشبهات؛ وذلك لجهلهم المركب في أنَّ تعدد القراءات له حِكم عظيمة منها: التيسير ورفع الحرج، وجهلهم بلغة العرب، وأخذهم بروايات ضعيفة أو شاذة[1].

- الرد على الدعاوى في مجال النسخ: حاول الحداثيون توظيف مبحث النسخ في القرآن الكريم لتحقيق مغالطتهم حول القرآن الكريم، والقول بأن القرآن قابل للمراجعة والتعديل، وأنَّ النسخ أوجده السلف دفعاً لتناقض آيات القرآن الكريم، وكل ذلك يتعارض مع قدسية القرآن الكريم، وأنَّ الله بعلمه وحكمته وتقديره شاء أن يتنزل القرآن الكريم مفرقاً يقع فيه النسخ بنص الآية الكريمة، قال تعالى: « ما ننسخ من آيةٍ أو ننسها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلها» [البقرة: ١٠٦]، وهذا النسخ وقع لأغراض أرادها المولى العزيز، وحِكمٍ عظيمة أراد الشارع الحكيم تحقيقها، وليس في النسخ ما يثير الارتياب أو يدعو إلى التشكيك عند أدنى نظر أو تحقيق.

المبحث الثاني
قضايا المعنى والتأويل وتحديات الحداثة

توسعت الدراسات الحداثية في هذا المجال، واتخذت هذه الدراسات مناهج متعددة، وتعتمد في غالبها على الدراسات الاستشراقية، وأفرزت هذه المناهج دعاوى وأفكار تتقاطع مع ثوابت الشريعة، وفي هذا المبحث يسلط الباحث الضوء على جملة من المحاور المرتبطة بدعاوى الحداثة حول التأويل القرآني وقراءته من خلال المحاور الآتية:

المحور الأول: مقدمات في قضايا التأويل القرآني

بذل العلماء سلفاً وخلفاً جهوداً مضنية في سبيل فهم القرآن الكريم، ووضعوا لذلك قواعد وضوابط وشروط حتى لا يخوض في تفسيره وتأويل معانيه من شاء وبأي طريقة يشاء، وفي الوقت ذاته كانت هناك مساحةً واسعةً للتجديد والإبداع بما لا يتعارض مع أسس التفسير والتأويل، ولذلك كان بناء المصنفات التفسيرية متماسكاً، ووجود اختلافات تأويلية حول بعض الآيات القرآنية لم يؤثر في هذا البناء، بل كان عامل إثراء للمنظومة التفسيرية، ولكن مع التأثير الكبير للدراسات الاستشراقية في عقول بعض المفكرين العرب، وحدوث تحولات ثقافية كبيرة في المجتمعات الإسلامية؛ ظهرت دعاوى تنادي بتطبيق مناهج حديثة لتأويل القرآن الكريم لا تتناسب مع طبيعته كنص إلهي مقدس، ومن جهة أخرى فقد

(١) ينظر: إسلام بن نصري الزهري، القراءات القرآنية شبهات وردود، ص١-٨.

أفرزت هذه المناهج أفكاراً تتصادم مع مسلمات العقيدة والشريعة الإسلامية، وقبل مناقشة هذه المناهج والأفكار في المحور الآتي؛ يجدر بنا أن نتعرض لذكر مقدمات في قضايا التأويل القرآني، وهي كالآتي:

- قسم من آيات القرآن الكريم جاءت محكمات كما قال سبحانه وتعالى: «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات» [آل عمران: ٧]، وهي آيات بينات واضحات يّرجع إليهن في تفسير وتأويل المتشابه من الآيات، وهو أحد ضوابط التأويل.

- ترك مجال التأويل القرآني بدون ضوابط وحدود يجعل التأويل عبثاً لا تحكمه المنهجية، وإذا كان هذا الأمر غير مستساغ في كلام البشر فكيف يمكن أن يُقبل في فهم كتاب الله تعالى الذي هو مصدر التشريع الأول في الإسلام.

- علما أصول الفقه ومباحث البلاغة العربية يُعَدَّانِ أنموذجاً يُعبر بجلاء عن الدقة المتناهية في استنباط المعاني والأحكام من كتاب الله، وأنّه عملية منهجية منضبطة وليست عبثية.

- ما بذله علماء التفسير سلفاً وخلفاً من جهود لإبراز معاني القرآن الكريم هو جهدٌ يستحق الإشادة وتوثيق الصلة به لا القطيعة معه كما يروج لذلك أصحاب القراءة الحداثية.

المحور الثاني: المناهج والأفكار الحداثية في قضايا التأويل القرآني:

تعددت مناهج وأفكار أصحاب القراءة الحداثية، وهي مناهج مستوردة من المستشرقين غلب عليها طابع التأويل غير المنضبط والموجهة بأيديولوجيات لا تتناسب مع طبيعة النص القرآن كنص إلهي مقدس؛ فكان لابد من بيان أبرز هذه المناهج حتى تتضح الصورة بشكل كامل، ونستطيع الحكم عليها: هل هي مناهج منضبطة أو مزيج من الفلسفات المتناقضة؟ مع بيان الأفكار والشبه التي تثيرها في سياق الحديث عن التأويل القرآني أو قراءة النص كما هو متعارف عليه في الدراسات الحديثة، وهي كالآتي:

- تحليل الخطاب: أكبر إشكاليات تنزيل مناهج التحليل والتفسير على النص القرآني أنها لا تراعي خصائصه التي تفرد بها عن غيره، وأعظمها خاصية ربانية مصدره، ومن جهة أخرى فالقراءة الحداثية تتجاهل النزعة الوضعية للمناهج الغربية، وهذا التجاهل يتعارض بشكل صريح مع البعد الإلهي للنص القرآني؛ وذلك لأنَّ المناهج الغربية تتعامل مع النصوص باعتبارها مادة لغوية محضة لا ترتبط بأي بُعد غيبي وتشريعي، ولا يمكن بأي وجه من الوجوه المساواة بين النص القرآني والنص البشري[1].

- التفكيكية: يزعم أصحاب التفكيك أنَّ جميع النصوص غير متناسقة وغير منضبطة، وهو كلام خطير لأنهم أدخلوا النصوص المقدسة في هذا الحكم، ومن جهة أخرى فالتفكيكية تعني أنَّ العلاقة بين اللفظ ومعناه غير ثابتة ولا يقينية، وتعتمد على ما

(١) ينظر: محمد علواش، مناهج تحليل الخطاب القرآني في الفكر العربي المعاصر، ملخص أطروحة دكتوراة، ص٥-٦.

يفهمه المتلقي من هذا اللفظ، وهو بهذا يشكك في اللغة نفسها، وفي قدرتها على التواصل، بل إنه يقود إلى عدد لا نهائي من التأويلات؛ ويجعل المتلقي وحده هو الحاكم على النص دون اعتبار لطبيعة النص أو سبب نزوله أو مصدره، والتفكيك الذي تبناه بعض الباحثين العرب، وحاولوا تطبيقه على النص القرآني هو اتجاه خطير؛ لأنه قائم على الشك والعدميَّة في ظل غياب رُوح الإيمان واليقين عن الفكر الغربي الحديث[١].

- البنيوية: البنيوية منهج نقدي يركز على النص وبنيته الداخلية دون اعتبار إلى مؤلفه أو أفكاره، إنها تدعو إلى تعدد المعاني في النص الواحد، وهذا بطبيعة الحال لا يؤدي إلى حقيقة معينة، بل يظل النص غير مستقر المعنى وغير نهائي، وهي في الوقت ذاته تحمل الكثير من الغموض والتعقيد وعدم الوضوح في معانيها، وهذا الأمر انعكس على تطبيقها في النص القرآن حيث جعلت النص القرآني غامضا ومعقداً وغير واضح[٢]، وفي الحقيقة فالبنيوية والتفكيكية متداخلتان من الناحية الزمنية[٣].

- اللانهائية في التأويل: فتحت النظريات والقراءات الحداثية المجال إلى اللانهائية في للتأويل، فكل قارئ للنص يقوم بتأويله على حسب فهمه وثقافاته فتتعدد التأويلات إلى عددٍ غير محصور، وكما عبر عن ذلك أدونيس بقوله: (أن تقول ما تريد بدون قيد)، وهل في ذلك إلا العبثية والفوضى، والذي هو من لوازم الحداثة[٤].

- ما بعد الحداثة: لم تتوقف الحداثة عند حد معين بل استمرت في تناقضاتها وعبثها مع تغير الظروف وتطور العلوم؛ الأمر الذي جعلها في أزمة مع نفسها فخرجت بمرحلة أخرى لا تختلف عنها كثيراً، ولكن بمسمى آخر هو (ما بعد الحداثة)، والمسمى الجديد وما قبله كلها تدور في فلك التناقض وعدم المنهجية، ولعل (ما بعد الحداثة) دليل على تأزم وفشل الحداثة نفسها، حيث إنها تقوم كبديل لها، وبالعموم فكلاهما غير منهجي ولا يقوم على فلسفة واضحة ثابتة، وليس بينهما حدود فاصلة أصلاً.

المحور الثالث: دعاوى الحداثة في قضايا التأويل:

الحداثة مفهوم هلامي يستخدم في التعبير عن أمور مختلفة[٥]، وهو عبارة عن خليط من الفلسفات وليس منهج واضح محدد؛ ولذلك انطلقت دعاوى الحداثة من زوايا متعددة وفي اتجاهات مختلفة، وفي هذا المحور نتعرض لبعض هذه الدعاوى، وهي كالآتي:

- نقل مناهج الغرب لتأويل كتاب الله تعالى، وهذه المناهج إن كانت تناسب نصوص أدبية بشرية

(١) ينظر: وليد قصاب، مقال بعنوان: التفكيك .. منهج خطير في التفسير، موقع الألوكة.
(٢) ينظر: عبد الرحمن الحرازي، المنهجية البنيوية في تحليل الخطاب القرآني، أطروحة ماجستير، ص١٠.
(٣) يحيى مصلح المسقري، الوحي من منظور القراءة الحداثية، أطروحة ماجستير، ص٤٣.
(٤) المصدر السابق: ص١١ وص٤٨.
(٥) فاطمة الزهراء الناصري، القراءة الحداثية للنص القرآني، دراسة نظرية حول المفهوم والنشأة والسمات والأهداف، ص١.

فإنها بطبيعة الحال لا تناسب القرآن الكريم كنص إلهي مقدس[١].

- إلغاء القواعد والضوابط الشرعية واللغوية لتأويل وفهم القرآن الكريم[٢]، وفي هذا عبث وفوضوية مقصودة تهدف إلى التشكيك في الحقائق القرآنية.

- الدعوة إلى التجديد في التأويل القرآني الذي ينبني على الاضطراب المنهجي، وعلى الهدم والنقض لا على الرؤية البنائية، وطرح أسئلة مفتوحة دون حدود[٣].

- التصور الباطل الذي يجعل النص القرآني كله ذو طبيعة سيّالة لا يمكن ثبات معانيها أبداً، وهي دعوى لا تقبل في كلام البشر فكيف تقبل في الوحي الإلهي، فلابد أن ينطلق تحصيل المعاني وفق منهج موضوعي ومقصد صحيح[٤].

- يعتقد بعض الحداثيين العرب أنه لا يمكن إنجاز تطور في نظرية التأويل إلا إذا نقدنا وراجعنا تصوراتنا نحو القرآن قبل نزوله، وهذا الأمر يقود إلى صناعة متتاليات فكرية تقوم على الوهم[٥].

- جعل القرآن إشكالياً بحيث يكون مجملاً يحمل احتمالات متعددة وتأويلات غير متناهية[٦].

- سيادة العقل في العملية التأويلية عند الحداثيين العرب، بل وعلى الرأي المجرد من الدليل حتى فيما يتعلق بالأمور الغيبية أو يتعارض مع روايات ثابتة أو أصول وقواعد تفسيرية مقررة[٧].

- الغموض الفكري أو الإرهاب المصطلحي الذي اتخذته القراءة الحداثية تعويضاً عن ضحالة الفكر وتضارب المنهج، والعبارات الملتوية المستخدمة عند بعض الحداثيين في حقيقتها فارغة المعنى[٨].

الخلاصة: القراءة الحداثية للآيات القرآنية كما لاحظنا من النقاط السابقة أنَّها لا تعتمد على منهج علمي ثابت في قراءة النص القرآني، بل تقوم على مناهج مستوردة لا تتناسب مع طبيعة القرآن الكريم كنص مقدس، وتقوم على سيادة العقل في جميع التأويلات وبشكل مطلق، ومن أساليبهم الغموض كذلك.

المحور الرابع: نقد دعاوى الحداثة في مجال التأويل:

لقد تبين لنا من خلال العرض السابق لدعاوى الحداثة من خلال المحاور السابقة أوجه سقوطها وبطلانها، وهذه إشارات سريعة مختصرة تنقد هذه الدعاوى من ناحية منهجية، ومن ناحية جزئية، ونقاط النقد والرد على دعاوى الحداثة كالآتي:

- رموز القراءة الحداثية للتراث ليس لديهم تخصص وخبرة في قراءة وتحقيق النصوص التراثية[٩]،

(١) يحيى مصلح المسقري، الوحي القرآني في منظور القراءة الحداثية، ص١.
(٢) المصدر نفسه، ص٥.
(٣) أحمد يوسف السيد، سابغات، ص١٧.
(٤) عبد الله العجيري وفهد العجلان، زخرف القول، ص٢٠٤-٢٠٧.
(٥) مصطفى الحسن، موجز في طبيعة النص القرآني، ص٧٧.
(٦) صليحة بن عاشور، الخطاب القرآني والمناهج الحديثة، ص٢٣٨.
(٧) فاطمة الزهراء الناصري، القراءة الحداثية للنص القرآني، ص٨.
(٨) المصدر السابق، ص٩.
(٩) إبراهيم السكران، التأويل الحداثي للتراث، ص١١.

وهم بهذا ليس لهم الحق أن يتصدروا مشهد تحليل النصوص التراثية فضلاً عن التصدي لتحليل نصوص القرآن الكريم.

- هناك فجوة في حقول المعرفة الإنسانية الغربية بين التنظير والتطبيق؛ فمع تفاخرهم بالتنظير لمناهج جديدة في تحليل النصوص إلا أنها تفتقر إلى التطبيق في تحليل النصوص لديهم، وإنما يغلب على القراءة لديهم قراءة أدبية للمتعة في غالبها[1]، فكيف يراد لهذه المناهج المعقدة العقيمة أن توظف في تحليل نصوص القرآن الكريم، وهي بيئتها التي نشأت فيها، ومع نصوصها أعجز عن فعل ذلك، ما لكم كيف تحكمون؟!

- يصرح المستشرقون أنفسهم أنَّ مناهجهم في تحليل النصوص عبارة عن موجات عارضة وليست مناهج علمية مبرهنة ومحكمة جاهزة للتطبيق، ولم تمحص مقدرتها التفسيرية[2].

- لم تقدِّم القراءة الحداثية أي جديد يخدم العملية التأويلية، وإنما غاية جهدهم ترديد لأقوال المستشرقين، وهي كما رأينا فارغة المعنى والمبنى، وعندما يكون الأمر بهذه الكيفية فهو أمرٌ يناقض أبرز شيءٍ يدعو إليه وهو التجديد، وما قدموه من تأويلات باطلة لا يرقى إلى مقام وصفه بالتجديد المفيد بل هو أحرى بوصف التهديم.

- النقل والعقل واللغة ثلاثية لها اعتبارها في ميزان التأويل عند علماء الأمة الإسلامية، ولم يهملها المفسرون الراسخون في العلم عند تفسيرهم لآيات الكتاب العزيز، وكان استخدامهم لها وفق منهجية منضبطة، وشروط معتبرة، وفي ذلك رد صريح على أصحاب القراءة الحداثية الذين اختل ميزانهم التأويلي بسبب التغليب المطلق للعقل على حساب النقل واللغة، وهو يبين عن جهل مركب يملأ عقولهم.

- تناقض المناهج الغربية مع بعضها في مجال تحليل النصوص هو أحد أدلة سقوطها.

- دوافع رموز القراءة الحداثية في التأويل وإن حاولت التستر خلف شعارات إنسانية إلا أن رائحة خبثها تظهر من بين أسطر كتاباتهم بين الفينة والأخرى، وهذه الدوافع تناقض فكرة الموضوعية والحيادية التي يتشدقون بها.

وبالعموم فالبحوث والردود على هجمة القراءة الحداثية على الوحي والتراث والتأويل في توسع ونشاط ورسوخ؛ الأمر الذي لمسته من خلال بحثي في هذا الموضوع، ويضيق مجال هذه الدراسة عن الإحاطة بها، وعسى أن يكون فيما ذُكر علامات تدل على الطريق الآمن من مخاطر القراءة الحداثية.

❋ ❋ ❋

الخاتمة

الحمد لله الذي وفّقنا لإنجاز هذا البحث، والذي جاء كخطوة في طريق الكشف عن دعاوى الحداثة في مجال الوحي ومجال التأويل من جهة، وتفنيد هذه

(١) المصدر نفسه، ص٢٨-٣٢.
(٢) المصدر السابق، ص٣٣.

الدعاوى ونقدها بأسلوب منهجي علمي من جهة أخرى، وقد خلص البحث إلى عددٍ من النتائج، هي كالآتي:

١- يستند أصحاب القراءة الحداثية على مناهج المستشرقين وأفكارهم، ولم يأتوا بأي جديد في مجال الوحي، ولا في مجال التأويل.

٢- جميع دعاوى الحداثة المرتبطة بالوحي والتأويل ساقطة علمياً ومنهجياً.

٣- أبرز الدعاوى في مجال الوحي ترتبط بالتشكيك في مصدرية القرآن الكريم، وتحاول أن تعامله كنص بشري يخضع للنقد، وتزعم أنه تعرض للتحريف.

٤- أبرز الدعاوى في مجال التأويل تقوم على تغليب العقل بشكل مطلق حتى في الأمور الغيبية، وتدعو إلى التأويلات اللامتناهية، ولا تقوم على منهجية معتبرة.

٥- المناهج المستوردة في مجال التأويل لا تتناسب مع طبيعة القرآن الكريم كنص إلهي مقدس محفوظ من التحريف.

أما التوصيات فهي كالآتي:

١- ضرورة دعم المشاريع البحثية المرتبطة بالرد على دعاوى الحداثة في مجال القرآن الكريم بشكل عام.

٢- توجيه طلبة الدراسات العليا إلى تبني أطروحات تناهض الحداثة بمختلف مناهجها.

وفي الختام: أسأل الله تعالى التوفيق للقائمين على هذا المؤتمر المبارك، وأن يتجاوز سبحانه عن الخطأ والتقصير في هذا البحث، وأن يرزقنا خدمة كتابه العزيز والدفاع عنه.

المصادر والمراجع

١. الجمل، بسام، مقدمة كتاب جماعي بعنوان: علوم القرآن في الإبستمية المعاصرة، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، الرباط، ط١، ٢٠١٨.

٢. الحرازي، عبد الرحمن بن أحمد، المنهجية البنيوية في تحليل الخطاب القرآني -دراسة تحليلية نقدية-، جامعة قطر، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ٢٠١٧م.

٣. الحسن، مصطفى، موجز في طبيعة النص القرآني، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٤م.

٤. الزرقاني، محمد عبد العظيم، تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.

٥. السكران، إبراهيم، التأويل الحداثي للتراث، مركز تفكر للبحوث والدراسات، ط٢، ٢٠١٧م.

٦. بو شعّالة، شكري، علوم القرآن على محكّ النقد والمراجعة، ضمن الكتاب الجماعي: علوم القرآن في الإبستمية المعاصرة، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، الرباط، ط١، ٢٠١٨.

٧. عاشور، صليحة، الخطاب القرآني والمناهج الحديثة في تحليله -دراسة نقدية-، جامعة ورقلة، الجزائر، دراسة مقدمة: أشغال الملتقى الدولي الثالث في تحليل الخطاب.

٨. قمّودي، عبد الباسط، النسخ في رسالة الشافعي، ضمن الكتاب الجماعي: علوم القرآن في الإبستمية المعاصرة، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، الرباط، ط١، ٢٠١٨.

٩. المسعودي، حمّادي، ظاهرة النسخ في القرآن، ضمن الكتاب الجماعي: علوم القرآن في الإبستمية المعاصرة، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، الرباط، ط١، ٢٠١٨.

١٠. المسقري، يحيى مصلح، الوحي القرآني في منظور القراءة الحداثية، أطروحة ماجستير، جامعة قطر، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ٢٠١٧م.

١١. المهندي، بدرية راشد، أطروحة ماجستير: دعوى التحريف في كتابة القرآن الكريم عند الحداثيين -دراسة تحليلية نقدية- ، جامعة قطر، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ٢٠٢٠م.

١٢. الناصري، فاطمة الزهراء، القراءة الحداثية للنص القرآني، دراسة نظرية حول المفهوم والنشأة والسمات والأهداف، دراسة، ٢٠٢٠م.